اربعة الاف سارية وعدد ابوابها تزيد على خمسة عشر الف باب وكان الناصر يقسم جباية البلاد اثلاثا ثلث للجند وثلث مدخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء وكانت جباية الاندلس خمسة الاف الف دينار واربعماية الف وثمانين الف دينار ومن السوق والمستخلص سبعماية الف دينار وخمس وستون الف دينار وهي من اهول ما بناه الانس واجله خطرا واعظمه شانا ذكر ذلك كله ابن بشكوال في تاريخ الاندلس انتهى كلامه وحكى ابن المغربي ان الوزير ابا بكر الشهير بابن جهور قال وقد وقف على قصور الامويين التي تقوضت ابنيتها وعوضت من انسها بالوحش تنفيسا

قلت يوما لدار قوم تفانوا • اين سكانك العزاز علينا
فاجابت هنا اقاموا قليلا • ثم ساروا ولست اعلم اينا

وفيه ان ابا عامر بن شهيد بات ليلة باحدى كنايس قرطبة وقد فرشت باضغاث آس وعرشت بسرور الاستيناس وقرع النواقيس يبهج سمعه وبرق الحميا يسرج لمعه والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحا بالزنانير ابدع توشيح قد هجروا الافراح واطرحوا النعم كل اطراح لا يعمدون الى ماء بآنية الا اغترافا من الغدران بالراح واقام بينهم يعملها حمياء كانما يرتشف من كاسها شفة لمياء وهي تنفح له باطيب عرف كلما رشفها اعذب رشف ثم ارتحل بعد ما ارتحل فقال

ولرب حان قد شممت بديره • خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم • متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا • يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدي لنا بالراح كل مصفر • كالخشف خفره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه بشربهم • لسلافهم والاكل من خنزيره

رجع الى بناء الزهراء

قال بعض مؤرخي الاندلس كان ينصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة الاف رجل ومن الدواب الف وخمسماية دابة وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة الاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل انتهى وسياتي في الزاهرة مزيد كلام وقال ابن حيان ابتدا الناصر بناء الزهراء اول يوم من محرم سنة ثلاثماية وخمس وعشرين وجعل طولها من شرق الى غرب الفين وسبعماية ذراع وتكسيرها تسعماية الف ذراع وتسعون الف ذراع كذا نقل بعضهم وفيه للنظر مجال قال وكان يثيب على كل رخامة كبيرة او صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومونة حملها وجلب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية والوردي والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة والحوض المنقوش المذهب من الشام وقيل من القسطنطينية وفيه نقوش وتماثيل على صور الانسان وليس له قيمة وجلبه احمد الفيلسوف وقيل غيره امر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمونس ونصب عليه اثني عشر تمثالا وبنى في قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه الصافي لونه المتلونة اجناسه وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت في وسطه اليتيمة التي اتحف الناصر بها اليون ملك القسطنطينية وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملو بالزيبق وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجوهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور ياخذ بالابصار وكان الناصر اذا اراد ان يفزع احدا من اهل مجلسه اوما الى احد صقالبته فيحرك ذلك الزيبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور وياخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس ان المحل قد طار بهم ما دام الزيبق يتحرك وقيل ان هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس وقيل كان ثابتا على صفة هذا الصهريج وهذا المجلس لم يتقدم لاحد بناوه في الجاهلية ولا في الاسلام وانما تهيا له لكثرة الزيبق عندهم وكان بناء الزهراء في غاية الاتقان والحسن وبها من المرمر والعمد كثير واجرى فيها المياه واحدق بها البساتين وفيها يقول الشاعر السميسر

وقفت بالزهراء مستعبرا • معتبرا اندب اشتاتا
فقلت يا زهرا الا فارجعي • قالت وهل يرجع من ماتا
فلم ازل ابكي وابكي بها • هيهات يغني الدمع هيهاتا
كانما آثار من قد مضى • نوادب يندبن امواتا

انتهى كلام هذا المورخ ملخصا وسياتي ما يوافق جله ويخالف قله والله سبحانه يعلم الامر كله فانه ربما ينظر المتامل هذا الكتاب فيجد في بعض الاخبار تخالفا فيحمل على الغلط وليس كذلك وانما السبب الحامل لذلك جلب كلام الناس بعبارتهم والناقد البصير لا يخفاه مثل هذا وربما يقع التكرار وذلك من اجل ما ذكر والله اعلم وتذكرت بما وصف من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذي شاده ملك طليطلة المامون بن ذي النون وذلك انه اتقنه الى الغاية وانفق عليه اموالا طائلة وصنع في وسطه بحيرة وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب وجلب الماء على راس القبة بتدبير احكمه المهندسون فكان الماء ينزل من اعلى القبة على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض فكانت قبة الزجاج في غلالة من ماء سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري والمامون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله وتوقد فيه الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب فبينما هو فيها وجواريه ذات ليلة اذ سمع منشدا ينشد

اتبني بناء الخالدين وانما • بقاؤك فيها لو عقلت قليل
لقد كان في ظل الاراك كفاية • لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فتنغص عليه حاله وقال انا لله وانا اليه راجعون اظن ان الاجل قرب فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفي ولم يجلس في تلك القبة بعدها وذلك سنة اربعماية وسبع وستين تجاوز الله عنه هكذا حكاه بعض مورخي المغرب وقد ذكر في غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون شارح العبدونية فليراجع وتذكرت هنا قول ابي محمد المصري في صفة قصر طليطلة

قصر

قصر يقصر عن مداه الفرقد • عزت مصاعده وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم • فعليه الوية السعادة تعقد
وكانما المامون في ارجائه • بدر تمام قابلته اسعد
وكانما الاقداح في راحاته • درجان ذاب فيه العسجد

وله في صفة البركة والقبة عليها

شمسية الاثواب بدرية • يحار في تشبيهها الخاطر
كانما المامون بدر الدجى • وهي عليه الفلك الدائر

وكان ملوك الاندلس في غاية الاحتفال بالمجالس والقصور وللوزير ابن الجزيري رحمه الله في وصف مجلس المنصور بن ابي عامر ما يشهد لذلك وهو قوله يصف

ومتوسطها الجنان في قعرها • بنت السلاحف ما تزال تشقق
تتساقب في فكي هزبر ان يكن • نبت الجنان فاه فاه اخرق
صاغوه من ند وخلق ممجج • هادية محض الدر فهو مطوق
للياسمين تطلع في عرشه • مثل المليك عداه زهو طارق
ونضايد من نرجس وبنفسج • وجني خيري وورد يعبق
ترنو بسحر عيونها وتكاد من • طرب اليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنا املقت • زهر الربيع فهن حسنا تشرق
فكانما هي في اختلاف رقومها • رايات نصرك يوم باسك تخفق
في مجلس جمع السرور لاهله • ملك اذا احجمت قناه يعرق
حازت بدولته المغارب عزة • فغدا يحسدها عليه المشرق

ومنها

اما الغمام فشاهد لك انه • لا شك صنوك بل اخوك الاوثق
وافى المبشر مخبرا بتمامه • في الصحو انشاوده يتدفق
والظن يحكيك جودا اذ راى • في اليوم نحوك زاخرا يتفهق

وكان السبب في هذه الابيات ان المنصور صنع في ذلك الاوان صنيعا لتطهير ابنه عبد الرحمن وكان عام قحط فارتفع السعر بقرطبة وبلغ ربع الدقيق الى دينارين فجلا الناس من قرطبة فلما كان يوم ذلك الصنيع نشات في السماء سحابة عمت الافق وهمت بالمطر الوابل فاستبشر الناس وسر المنصور ابن ابي عامر فقال الجزيري بديهة اما الغمام الى آخره وهو القايل على لسان نرجس العامرية

حييتك يا قمر العلا والمجلس • ازكي تحيتها عيون النرجس
زهو تزيك بحسنها وبلونها • زهر النجوم الجاريات الكنس
ملكن انفة الذليل كلما • دارت بمجلسهم مدار الاكوس
ملك الهمام العامري محمد • للمكرمات وللنهى والانفس

قال ابن بسام ومن شعر الجزيري ما اندرج له اثناء نثره الذي سلك فيه مخاطبة المنصور على السنة اسماء كرايم بزهر رياضه فمن ذلك عن بهار العامرية

حدق الحسان تقر لي وتغار • وتضل في صفتي النهى وتحار
طلعت على قضبي عيون تمايمي • مثل العيون تحفها الاشفار
ولخصني تيه اذا شبهتني • در تنطق سلكها دينار
اهدى له قضب الزمرد ساقه • وحباه انفس عطره العطار
انا نرجس حقا بهرت عقولهم • ببديع تركيبي فقيل بهار

ومن اخرى من بنفسج العامرية اذا انداعت الخصوم ايد الله مولانا المنصور في مذاهبها وتنازعت في مفاخرها فاليه مفزعها وهو المقنع في فصل القضية بينها باستيلائه على المفاخر باسرها وعلمه بسرها وجهرها وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما والفخر بما بهما كل مذهب وما منهما الا ذو فضيلة غير ان فضلي عليهما اوضح من الشمس التي تعلونا واعذب من الغمام الذي يسقينا فان كانا قد تنبها في شعرهما ببعض ما في العالم من جواهر الارض ومصابيح السماء وهي من الموات الصامت فاني اتشبه باحسن ما زين الله به الانسان وهو عيون الناطق مع انني اعطر منهما عطرا واحمد خبرا واكرم اسماعا شاهدا وغايبا ويانعا وذابلا وكلاهما لا يمتع الا ريثما ينبع ثم اذا ذبل تستكره النفوس شمه وتستدفع الاكف ضمه وانا امتع رطبا ويابسا وتدخرني الملوك في خزاينها وساير الاطباء واصرف في منافع الاعضاء فان فخرا باستقلالهما على ساق هي اقوى من ساقي فلا عزو ان الوشي ضعيف والهوى لطيف والمسك خفيف وليس المجد يدرك بالصراع وقد اودعت ايد الله مولانا قوافي الشعر من وصف مشابهي ما اودعاه وحضرت بنفس لا تغيب عن حضرتهما نفثتها بما يفضل الحاضر وان كان مفضولا وكذا قالوا الذ الطعام ما حضر لوقته واشعر الناس من انت في شعره فلمولانا اتم الحكم في ان يفصل بحكمه العدل واقول

شهدت لنوار البنفسج السني • من لونه الاحوى ومن ابناعه
بمشابه الشعر الاحم اعاره • القمر المنير الطلق نور شعاعه
ولربما جمع البنفسج من الطلى • في صارم المنصور يوم قراعه
تحكيه غير مخالف في لونه • لا في روايحه وطيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل العلا • حتى وضحن بنهجه وشراعه
في سيفه قصر لطول نجاده • وتمام ساعده وفسحة باعه
ذو هيبة كالبرق في اسراعه • وعزيمة كالحين في ايقاعه
تلقى الزمان له مطيعا سامعا • وترى الملوك الشم من اتباعه

وما احسن قول بعض الاندلسيين يصف حديقة

وحديقة مخضرة اثوابها • في قضبها للطير كل مغرد
نادمت فيها فتية صفحاتهم • مثل البدور تنيرين الاسعد
والجدول الفضي يضحك ماؤه • فكانه في العين صفحة مهند
وتناثرت نقطا على حافاته • كالعقد بين مجمع ومبدد
وترجحت للناظرين كانها • در تنثر في بساط زمرد

وكان بحمام الشطارة باشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض اهل الاندلس بقوله

ودمية مرمر تزهى بجيد • تناهى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا • ولا المت باوجاع المخاض
ونعلم انها حجر ولكن • تتيمنا بالحاظ مراض

وكان بسرقسطة في القصر الذي يسمى بدار السرور مجلس الذهب احد قصور المقتدر بن هود وفيه يقول ذو الوزارتين ابن غند شلب

بهو وزيرا ابن تحقوق • فيح من تحقق بيت الذهب
رب طهرني فقد دنسني • عار تحقوق المؤوف الذنب

وكتب بعض كبراء الاندلس الى اخوانه كتابي هذا من وادي الزيتون ونحن فيه مخلفوك ببقعة اكتست من السندس الاخضر وتحلت بانواع الزهر وتخايلت بانهار تتخللها والاشجار تظللها تحجب ادواحها الشمس لا لتفانيها وتاذن للنسيم فيميل من اعطافها وما شئتم من محاسن تروق وتعجب والطيار تتجاوب بالحان تلهي وتطرب في مثلها يعود الزمان كله صبا وتجري الحياة على الامل والمنى وانا ابقاكم الله ادعيها بحال من طاب غذاؤه وحسن استمراؤه ومحاسن جنونا العقار واستراح من مضض الخمار وزايلته وساوسه وخلصت من الخمار هواجسه ثم ذكر كلاما من هذا النمط في وصف الخمار والدعا الى العقار فراجعه ابو الفضل ابن حسداي برقعة قال في صدرها يا سيدنا الذي

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)